﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

[العنكبوت: 40]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

يحصدُ الإنسانُ ما زرعَه من الشّرّ، ويعفو اللهُ عن كثير

لمّا ذكرَ في الآيات السّابقة جناياتِ القومِ وجرائمَهم مع أنبيائهم، ذكر هنا مصارعَهم المُستحقَّةَ بسببِ ما جَنَوا به على أنفسهم، فحصَدوا ما زرعوا وما عمَدوا وأصرّوا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَاصِبًا﴾: أصل (حصب) جِنْسٌ مِنْ أجْزاءِ الْأَرْضِ، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْهُ، وهوَ الحَصباءُ، وذَلِكَ جِنسٌ مِنَ الحَصَى، ويُقالُ حَصَبْتُ الرَّجُلَ بِالْحَصباءِ، وريحٌ حاصِبٌ، إذا أتَتْ بِالْغُبارِ[1]، وقوله: ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ هي الرّيحُ القويّةُ الّتي تقلعُ الحَصْباءَ، وهي صغارُ الحصى وكبارُها[2].

2) ﴿خَسَفْنَا﴾: (خسف) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى غُموضٍ وغُؤورٍ، وإِلَيْهِ يَرْجِعُ فُروعُ الْبابِ، فالْخَسْفُ والْخَسَفُ: غُموضُ ظاهِرِ الْأَرْضِ[3]، ويقال: انْخَسَفَتْ، وخَسَفَها اللَّهُ، وخَسَفَ اللَّهُ بِهِ الأرضَ خَسْفًا، أي: غابَ بِهِ فيها؛ ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: 81]، وخَسَفَ هوَ في الأرض وخُسِفَ بِهِ[4]، وقوله: ﴿خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، أي: خرقْنا الأرضَ به، وجعلناها به مخروقةً، كما تُخرَق بالوتَد[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حصب).
(2) السّمين الحلبيّ، عُمدة الحفّاظ: (حصب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خسف).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (خسف).
(5) السّمين الحلبيّ، عُمدة الحفّاظ: (خسف).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سُـنّـة الـلـهِ في مُؤاخذة الظّالمين لا تَتَخَلّف

ختمَ البيان القرآنيُّ الحديثَ عن هؤلاء المكذّبين، ببيانِ سنّةٍ من سُنَنِه الّتي لا تتخلّف، فقال: فكُلًّا من هؤلاء المذكورينَ كقوم نوحٍ وإبراهيمَ ولوطٍ وشُعَيبٍ وهودٍ وصالحٍ، وكقارونَ وفرعونَ وهامانَ وأمثالِهم من الظّالمين أخذناهُ وأهلكناهُ بسبب ذنوبِه الّتي أصرّ عليها دونَ أنْ يرجعَ عنها[1]، فمنهمُ الّذين أرسلنا عليهم ريحًا شديدةً تَرميهم بحجارةٍ من طينٍ مُتتابع، وهم قومُ لوط، ومنهم مَن أخذَتْه الصّيحة، وهم قومُ صالحٍ وقومُ شُعَيب، ومنهم مَن خسفْنا به الأرضَ كقارونَ، ومنهم مَن أغرقْناهم، وهم قومُ نوحٍ، وكذا فرعونُ وقومُه، ولم يكنِ اللّهُ ليُهلكَ هؤلاءِ بذنوب غيرهم، فيظلمَهم بإهلاكه إيّاهم بغير استحقاق، ولكنهَّم كانوا أنفسَهم يظلمونَ بتنعُّمِهم في نِعَم ربِّهم وعبادتِهم غيرَه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاء):

تفريعُ المؤاخذةِ على سببها من الجناية

جملة: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾، تفسيرٌ لما يُنبئ عنه عدمُ سبقِهم بطريقِ الإجمال، أي: فكلّ واحدٍ من المذكورين[3]، ويصحّ أنْ تكون الجملة فذْلَكَةً بعد الإهلاكِ المقدّر في جملة: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَّ﴾، أوْ إهلاكِ الجميع، كما في: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ [العنكبوت: 38] أي: فذَلكَ الإهلاكُ المذكور لهؤلاءِ الأشخاص والأقوام، كان أخْذًا منّا لكلِّ واحدٍ منهم بذنبِه، والفَذْلَكَةُ: هي تقريرُ ما سبَقَ بالتّعقيب عليه بخلاصتِه المُناسِبة، وهي منحوتةٌ كـ(البَسْمَلة)، وأصلُها من عبارة: (فَذَلِكَ كذا)[4]، والفاءُ في قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا﴾ تفريعيّةٌ؛ لترتيبِ

(1) طنطاويّ، الوسيط: 11/ 38.
(2) نخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير الميسَّر، مَجْمَع الملك فهد، ص: 401.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 40.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 363.

مضمونِ مدخولِها على إهلاكهم والإخبارِ عن عدمِ سَبْقِهِم، أي: فتسبّبَ عن تكذيبهم وعصيانهم أنّ كلًّا منهم أخذناهُ بذَنْبِه[1].

الموقع النّحويّ والبيانيّ لقوله: ﴿فَكُلًّا﴾:

قوله: ﴿فَكُلًّا﴾ مفعولٌ مقدّمٌ منصوبٌ بـ﴿أَخَذْنَا﴾، وأصلُ الكلام: أخذنا كلَّ واحدٍ منهم بذنبه، فالتَّنوينُ عِوضٌ عن المضاف إليه المحذوف، وتقديمُ المفعول؛ للاهتمام بأمرِ الاستيعابِ والاستغراق الَّذي أفادَه لفظُ: (كُلًّا)، فقُدّمَ إسراعًا في التَّنبيه وتأكيدًا على الاهتمام بما قُدِّم، وللدَّلالة على الشُّمول الاستغراقيِّ، ولأنّ المفعولَ هو المأخوذ، فكان التَّوجُّهُ إليه بالقصد أوْلى، وهل التَّقديمُ يفيدُ الحصر؟ الظّاهرُ أنّ الحصرَ مستفادٌ من لفظ (كُلًّا) حتّى لو تأخَّرَتْ؛ لكونها نصًّا في العموم، تفيدُ الاستغراقَ بنفسها، وقيل: تقديمُها أفاد الحصرَ، على معنى: (كلّ واحدٍ من المذكورينَ عاقبناهُ بجنايتِهِ، لا بعضًا دون بعض)، ولو أخرّ (كُلًّا) فلا يُفهَم منها عدمُ إلحاق البعض، وإنّما يفهم منها بواسطة التّقديم[2]، والظّاهرُ أنّ التّقديم أفادَ تأكيدَ الحصر وتحقيقَه بحيثُ جعلَه مقطوعًا به، لا يطرأُ عليه احتمالٌ يُتوهَّم معَه عدمُ دخولِ البعض، وأمّا التَّأخيرُ فهو وإنْ أفادَ الحصرَ بسبب المعنى الوضعيِّ للفظ (كُلًّا) إلّا أنّه لا يمنعُ إمكانَ إرادةِ البعض واحتمالَه بسببِ عدم إمكانِ تقدير: (لا بعضًا دون بعض).

التقديم أفاد الأهمية والتنبيه وتأكيد الحصر

بلاغةُ الاستعارة:

التّعبير بـ(الأخذ) في قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا﴾ يُقصَد به تناولُ الشَّيء وتحصيلُه بقوّة وقهرٍ، فهو إزالةٌ للشّيءِ من حِرْزِه الأوّل إلى حِرْزٍ مُتناوَله، والمرادُ به في قوله: ﴿أَخَذْنَا﴾ الإهلاكَ والإعدام، فشبّه الإعدامَ بالأخذ، بجامعِ الإزالة في كُلٍّ، على سبيل الاستعارة

العذاب كطارقِ الفَجأة حينَ يُسَلَّطُ ويُستأجَر فيُلبّي ويَستَوْلي

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 439.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 363.

التّصريحيّة التّبعيّة[1]، والغرضُ من الاستعارة تجسيدُ الإعدام والإهلاكِ بثياب الحسيّات، مع سهولةِ عمليَّة الإهلاك، فصوِّر العذابُ بقادرٍ على الأخْذ؛ لأنّه كطارقِ الفَجأة حينَ يُسَلَّطُ ويُستأجَر فيُلبّي ويَستَوْلي.

نكتةُ إسنادِ الأخذ إلى ضمير العظمة:

إسنادُ الأخذ إلى ضمير العظمة والجلال في قوله: ﴿أَخَذْنَا﴾؛ للإشعار بأنّ إيقاع العذاب لا يتأتّى إلّا بعظمةِ القويّ الجبّار، فالأخذُ بالعقوبة لازمٌ عنها.

معنى الباء:

(الباء) في قوله: ﴿بِذَنۢبِهِۦ﴾ سببيّة، أي: بسبب ذنوبهم أخذناهم، وفي ذلك إشارةٌ إلى استحقاقهم، وفي تعليلِ الانتقام والإهلاك تسويغٌ لهما؛ وإشارةٌ إلى أنَّ للعبد مَدخلًا فيما يواجهُهُ من عقوبات.

الظّالمُ جانٍ على نفسِه

نكتةُ إضافة الذّنب إلى الضّمير، وعودِ الضّمير:

الضّميرُ (الهاء) في قوله تعالى: ﴿بِذَنۢبِهِۦ﴾ عائدٌ على المضاف المقدّر المنوبِ عنه بالتّنوين في قوله: ﴿فَكُلًّا﴾، أي: (كلّ أحدٍ من المُستكبِرين المذكورين)، وإضافةُ الذَّنب إلى الضَّمير في: ﴿بِذَنۢبِهِۦ﴾ للتّعريف وإفادةِ العهد، وهو ذنبُ الكُفر المعهود من كلِّ طائفةٍ بعينها، فقومُ لوطٍ لهم ذنبُ الفاحشة، وقومُ شعيب لهم ذنبُ تطفيف الكيل والميزان ...، وهكذا، وغرضُ الإضافة: الدّلالةُ على أنّ المؤاخذةَ وقعتْ بقَدْرِ الذَّنْبِ المُرتَكَب وبحقِّه، مع ما في ذلك من حَمْلِ المُخاطَب على استحضارِ العقوبةِ مقترِنةً بسببها من الجناية، ولا يخفى ما فيه مِنْ كمال التّرهيب، وقصْدِ التّنفير من الجرائم والموبِقات.

المؤاخذةُ وقعَتْ بِقَدْرِ الذَّنْبِ وبحقِّه، ولا يظلمُ ربُّكَ أحدًا

نكتةُ التّعبير بالذّنب دونَ غيره:

عبّر بالذّنب في قوله: ﴿أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾؛ ليدلّ به على العاقبة

لفظُ الذّنب دالٌّ على العقوبةِ المقترنةِ به

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 247.

والمؤاخَذةِ اللّاحقة به، فالذّنْبُ هو العملُ السّيّءُ الّذي تُستَوْخَم وتُستَثْقَلُ عاقبتُه، وهذا المعنى مأخوذٌ مِنَ (الذَّنَب)، الّذي هو مُؤَخَّرُ الشّيء، فيُلاحَظُ في الذَّنْبِ تَبِعَتُه من العقوبةِ الّتي تَلحقُه وتواليهِ موالاةَ مُؤَخَّرِ الشّيء لأوّلِه ومُقَدَّمِه، ولا يخفى وجْهُ اصطفائِه هنا؛ لاقترانِهِ بالعقوبة والتَّبِعَة في: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾[1].

معنى الفاء:

(الفاء) في ﴿فَمِنْهُم﴾ في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ تفريعيّةٌ؛ لتفصيلِ الإجمال في قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾، فهي تفصيلٌ للأخْذِ وتفسيرٌ له وبيانٌ لكيفيّاته[2].

التّفصيلُ، حيث العِبْرةُ تكمنُ فيه

معنى (من):

(مِنْ) في قوله: ﴿فَمِنْهُم﴾ للتّبعيض، أي: فبعضُهم أرسلنا عليه كذا، وبعضُهم أرسلنا عليه كذا.

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة:

تقديمُ شبهِ الجملة في قوله: ﴿فَمِنْهُم﴾ للاهتمام واستحضارِ العنايةِ بالمأخوذِ المُعاقَب؛ لكونه محلَّ العِبْرةِ والمَثَل في الاتّعاظ به، والتّحوّطِ من التّورّط في مِثْلِ مَسْلَكِهِ ومصيرِه.

الاهتمام بذِكْر الجاني في مقام إيراد العقوبة ضرورةٌ؛ لكونه المقصودَ بها

دلالة ﴿مَّنْ﴾:

﴿مَّنْ﴾ في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا﴾ إمّا موصولةٌ بمعنى (الّذي)، وقوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ صلةُ الموصول، أوْ نكرةٌ موصوفة، وقوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ صفتُها، والتّقدير: (فمنهم فريقٌ أرسلْنا عليه ...، أوْ بعضٌ أرسلْنا عليه)، والموصوليّة هنا تفيد العهديّةَ والتّعيين، أي: تعيينَ المأخوذينَ بمضمونِ الصّلة، وهم قومُ عاد، وأفادَتْ ﴿مَّنْ﴾ على الموصوليّة عمومَ المُهلَكين رجالًا ونساءً، أمّا على كونها نكرةٌ موصوفةٌ؛ فالمعنى

إنّ المُهلَكين بأنواع العذاب أعمّ ممّا قصّه القرآن

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحفّاظ: (ذنب).
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 40.

هو الإبهامُ وعدمُ التّعيين، وإنْ كان بعضُ أفراد هذا المبهَم معلومينَ للمخاطَب كقوم عاد، إلّا أنّ الإبهامَ مقصودٌ من عموم ﴿مَّنْ﴾ معَ تخصيصِها بالوصف؛ لتقليلِ الاشتراك، فلا يدخلُ جميعُ المعذَّبين، فيُقتصر منهم على المعذّبين بإرسالِ الحاصب فقط، ومعنى قصدِ الإبهام: إرادةُ أنَّ المُهلكينَ بإرسالِ الحاصب أعمّ من قوم عاد، فلم يَقصُصْهمُ الله علينا، فالعِلْم بهم عندَ الله[1].

نكتةُ إسنادِ الإرسال إلى ضميرِ العظَمة:

إسنادُ الإرسالِ إلى ضمير العظمة في قوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾؛ للدّلالة على اقتدارِ الله العظيم في تصريفِ أفعاله وإنفاذِها[2].

غرضُ تعديةِ الإرسال بـ(على):

الاستعلاء للتّفريقِ بينَ إرسالِ العذاب وإرسالِ الخطاب

تعديةُ الإرسال بحرف الاستعلاء في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، ولم يقل: (أرسلنا إليه)؛ لأنّ الإرسال هنا إرسالُ عذاب، فهو عالٍ عليهم، وليسَ إرسالَ خطابٍ، حتّى تكونَ غايتُه إيصالَه إليهم، فهو إرسالُ عذاب، لا خِطاب[3].

فائدةُ تقديم شبه الجملة:

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ شبهَ الجملة ﴿عَلَيْهِ﴾ في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾، ولم يقلْ في السّياق الكريم: (أرسلنا حاصبًا عليه)، للاعتناءِ والحصْر.

نكتةُ تنكيرِ ﴿حَاصِبًا﴾:

تنكيرُ قوله ﴿حَاصِبًا﴾ في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾؛ جاء لتهويل العذاب وتعظيمه تربيةً بالتّرهيب والتّخويف لصرف العصاة والكافرين عن العصيان والكفر.

---

(1) الخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 20/ 267، ودرويش، إعراب القرآن: 7/ 435، وصافي، الجدول: 10/ 339، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 3/ 152، 153.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 251.

(3) ابن عُثَيمين، تفسير سورة العنكبوت، ص: 201.

فائدةُ العطف:

العطف في ﴿وَمِنْهُم﴾: في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾؛ للجمْع بين مستحقّي العذاب في الأصل، وإنِ اختلفوا في نَوعِهِ.

بلاغةُ المجاز في إسناد الأخذِ إلى الصّيحة:

إشهادُ السّامع على مصارعِ القوم بالسّبب الّذي أهلكَهم

إسنادُ (الأخذ) إلى ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾؛ مجازٌ عقليّ، حيث أُسْنِدَ الفعلُ إلى غير فاعلِه الحقيقيِّ؛ لِعلّة السَّببيّة والآليّة، إذْ لمّا كانت الصّيحةُ آلةَ الأخْذ وسببَه، أُسندَ الفعل إليها، إشهادًا للسّامع على مصارعِ القوم بالسّبب الذي أهلكَهم، وهي الصَّيحة.

بلاغةُ العدولِ عن إسناد الأخذِ إلى ضميرِ العظمة:

العدولُ في الإسناد؛ لتقريرِ الكمال، ودفعِ إيهامِ النّقْص

في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾؛ تم العدول عن إسناد الأخذ إلى ضمير العظمة، فلم يقل: (ومنهم من صِحْنا به) كما كان في السّياق الكريم عندما أسندَ أفعالَ العقوبة إليه سبحانه، في قوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿خَسَفْنَا﴾، ﴿أَغْرَقْنَا﴾، بخلاف (الأخذ)، إذ أسندَه إلى الصَّيحة في قوله: ﴿أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾؛ لأنّه لو أسندَ الفعل من لفظ الصَّيحة إلى نفسه؛ لَأَوْهَمَ النَّقصَ، والتّشبيهَ بالحوادث، فلا يُقال: (صِحْنا به)؛ فلا يُنسب إلى الله أنّه صائحٌ بهم[1]؛ لأنّ الصّيحةَ هي الصّوتُ الشّديد، إمّا من مَلَك، وإمّا من رَعْدٍ، وإمّا من ريحٍ، وإمّا من غير ذلك[2]، فهي صوتٌ مخلوقٌ في مخلوق، فكما لا يقالُ عن الله صائتٌ، لا يقال عنه: (صاح بهم)، حتى لو أُسْنَدَ فِعْلَ الأخذِ إليه، بأنْ يُقال: (أخذناه بالصَّيحة)، لَأَوْهَمَ ذلك أيضًا، لاحتمالِ أنْ يكون المعنى: (أخذناه بصياحِنا فيهم).

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 439.
(2) السّمين الحلبيّ، عُمدة الحفّاظ: (صيح).

معنى الباء في قوله: ﴿خَسَفْنَا بِهِ﴾:

(الباءُ) في قوله: ﴿خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ على بابها من التّعدية، لضرورةِ تعديةِ الخسف إلى المخسوف، و(الباءُ) لا يفارقُها معنى الإلصاق، فتدلّ عليه، أي: خسَفْنا الأرضَ خسْفًا مُلتصِقًا بالمخسوف.

نكتةُ تقديم شبهِ الجملة:

تقديمُ شبه الجملة ﴿بِهِ﴾ في قوله: ﴿خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾؛ للاعتناء والحصر، فلمّا كان المخسوفُ به هو مدارَ القصد من الخبر، قدّمه، والتّقديمُ أعانَ هنا على التّعيين والتّحديد، وهو أنّ المقصود قارونُ.

بلاغةُ اللّفِّ والنّشر في الآية:

شَـحْـذُ ذهـنِ الـسّـامـعِ بـردّ النّشر على اللّفّ

في توالي العقوبات في الآية لفٌّ ونشْرٌ، وهو من المحسّنات البديعيّة المعنويّة الّتي تشحذُ عقلَ السّامع في إرجاع هذه المتواليات المذكورة إلى ما هي له من أصحابها المتقدّمين في النّظم، فقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ يرجع إلى قوم (عاد)، وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يرجع إلى (ثمودَ)، وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يرجع إلى (قارون)، وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ يرجعُ إلى (فرعون وهامان)[1].

معنى (الواو):

أجـزيـةُ الـدّنـيـا قـد يَـشـوبُـهـا في تضاعيفِها ظُلْمٌ أوْ مُجاوزة الحدّ

(الواو) في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾: عاطفة عطفت جملة ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ على جملة ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾[2] مُؤكِّدةً لها ومُقرِّرةً لمضمونها من كون إلحاقِ العقوبة بهم بسببِ استحقاقِهم على ذنوبهم، لا بظلم لهم ولا تَجَنٍّ عليهم، وفائدةُ التّذييل بها رغمَ تقدّم ما يوافِق مضمونَها، التّنبيهُ على أنّ أخْذَهُم بذنوبهم ليس على غِرار أجزيةِ الدنيا، الّتي قد يَشوبُها في تضاعيفِها ظلْمٌ أوْ مُجاوزة الحدّ.

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 439، 440، والقونَويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 56، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 251.

(2) الخطيب، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 20/ 269.

دلالةُ الكون المنفيّ:

قِـــدَمُ انـتـفـاءِ الظّلم عن الله كَـقِـــدَمِ ذاتِـــه سبحانه

التّعبيرُ بالكون الماضي في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ لإفادة أنّ عادة اللّهِ مع خلقه هي عدمُ الظّلم، أي: إنّ الكينونةَ تدلّ على أنّ انتفاء الظّلم عن اللّه قديمٌ قدمَ ذاته سبحانه، فلا يوجَد الظّلمُ أصلًا منه، كأنّه قيل: (ماهيّة اللّهِ سبحانه وحقيقةُ كونِه ووجودِه أنّه ما يصحّ له وما ينبغي وما يستقيمُ أنْ يظلمَهم).

دلالةُ لامِ الجحود:

تـركـيـبُ الـكـون الـمـنـفـيِّ مـع لام الجـحـود يفيدُ نفيَ القصد إلى الفعل

(لام الجحود) في قوله: ﴿لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ الواقعةُ في حيّز الكون المنفيِّ، في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ تدلّ على تحقيقِ النَّفْي وزيادةِ تقويتِه وتأكيده، وتركيبُ الكون المنفيِّ مع لام الجحود يفيدُ نفيَ القصد إلى الفعل، ونفيُ القصد والإرادة أبلغُ من نفي الوجود والوقوع، والتّقدير: أي: ما كان اللّه قاصدًا أنْ يظلمهم، أي: ما ينبغي له ذلك ولا يجوز عليه[1]؛ وذلك كما لو قيل: (ما كنت أضربُك) بغير لام، فيصحّ أن يكون الضّربُ ممّا يجوز كونُه وحصولُه، فإذا قيل: (ما كنت لأضربَك) فاللّامُ جَعَلَتْهُ بمنزلة ما لا يكونُ أصلًا[2].

دلالةُ التّعبير بالمضارع:

نـفـي الـوقـوع سابقًا والتّوقع حالًا

جاء قوله: ﴿لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ مضارعًا، وقد وقعَ خبرًا للكون المنفيِّ، أوْ مُتعلِّقًا بالخبر المحذوف على تقدير: مريدًا أوْ قاصدًا لِظُلْمِهم - على الخلاف المشهور في ذلك - لأنّ إثباتَ هذا النَّفي: (كان سيظلمُهم) فجاء النفيُ للمضارعةِ كذلك على نفْس الزّمن في قوله: ﴿لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ لنفي التّوقّع في الحال، ونفي صورةِ الوقوع المتجدّدةِ في الماضي، أي: نفيُ توقّعِ الحدوث في الماضي، ولا يخفى امتناعُ دخول اللّام على الماضي[3].

(1) فاضل السّامرّائيّ، معاني النَّحْو: 1/ 225، والخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 20/ 269.
(2) الزَّرْكَشيّ، البرهان: 3/ 87.
(3) فاضل السّامرّائيّ، معاني النَّحْو: 1/ 225، 1/ 212.

معنى الواو في ﴿وَلَٰكِن﴾:

(الواو) في قوله: ﴿وَلَٰكِن﴾ عطفت جملةَ (لكن كانوا أنفسهم يظلمون) على جملة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾؛ ليجمعَ بين إثبات الكمال للّٰه بعدمِ ظلمِه لهم، وإثبات النّقص لهم بصدورِ الظُّلم منهم.

عطفٌ لإثبات كلّ كمالٍ لله بمقابل إثبات النّقص فيما سواه

فائدةُ الاستدراك:

في قوله: ﴿وَلَٰكِن﴾ في عبارة ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ أتى بجمع الجملتين المتعاطفتين السابق ذكرُهما بطريق الاستدراك؛ للتَّسجيلِ عليهم، ولتبكيتِهم؛ ولئلّا يُتوهَّم أنّ نفيَ الظّلم عن اللّٰه في مؤاخذتِهم ناشئٌ مِن انعدام موجب المؤاخذة، وهو كونُهم غيرَ ظالمين أصلًا، فجاء الاستدراكُ لنفي هذا التّوهُّم[1].

الاستدراكُ مُنصَبٌّ على إيهامٍ يُحتَمَلُ ورودُه على ذهنِ السّامع

بلاغة استعمال فعل الكون الماضي:

وقوعُ خبر (كان) مضارعًا في قوله: ﴿كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾؛ للدّلالة على أن فعلهم كان مستمرًّا في الماضي، وكان عادة متجدِّدةً عبر ما مضى من زمن، أي: إنّ ظلمَهم لأنفسهم كانوا يفعلونَه على جهة العادة المتجدّدة، فيدلّ المضارعُ الواقعُ خبرًا لـ(كان) على الماضي المعتاد[2].

دلالة على كون الظُّلم عادةً لهم يتحرَّونَ فِعلَه

نكتة تقديم المفعول:

قوله: ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ في عبارة: ﴿كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ قدّمَ المعمولَ على العامل إسراعًا لاستحضار (أنفسِهم) مِهادًا مُهيَّئًا لإيقاعِ ظُلمهم عليها، وفي ذلك تعجيلٌ بإيقاع الإشفاق على هذه الأنفس؛ لأنّ النَّفس أوْلى الأشياء برأفةِ صاحبها بها وتفكيرِه في أسبابِ خيرها، ومع ذلك ضيّعوها وغَبَنوها[3].

تقديمُ المعمول لـلاختصاص والإشفاق

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/ 252.
(2) فاضل السّامَرّائيّ، معاني النَّحْو: 1/ 212.
(3) ابن عاشور التَّحرير والتَّنوير: 20/ 252.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»